آخر ترجماته «صنعة الشعر» و«الديكاميرون»

صالح علماني ظاهرة فريدة في الترجمة تستحق التكريم

رشاد أبوشاور

■ ما زلنا نحن العرب نباهي بتكريم الخليفة العباسي المأمون للمترجمين في عصره، الذين حضهم على نقل روائع الفكر اليوناني إلى العربية، وكل ما هو هام من العلوم وما يغني معرفة عرب ذلك الزمان، وكافأهم بمردود مادي يكفل لهم عيشاً كريماً، ناهيك عن التقدير الذي حظوا به في مجالسه.

في زمن التخلف العربي الممتد طيلة قرون، ومع تفاقم حالة الانكفاء، والتفتت، ولا سيما في حضيض الزمن الراهن، واستفحال بؤس (ثقافة) الدولة العربية الإقليمية، بحدودها النابذة والمستريبة المعادية للثقافة ممثلة بالكتاب، وكل ما هو مكتوب، لا غرابة أن المترجم أسوةً بالكاتب (المبدع) لا يحصل على مردود يكفي لعيشه من (جهده)، إذ لا حاجة للكاتب ولا للمترجم في بلاد الاستهلاك والتبعية، وتعمد محو الهوية القومية بعمقها الثقافي.

لكن (المترجم) الأدبي العربي، رغم كل الجحود، بهمة تستحق الثناء، يجهد نفسه في نقل بعض شوامخ الأدب والفكر من لغات (الآخر) مشرقاً ومغرباً، وبهذا يغني معرفة المثقفين، والمبدعين العرب، والقراء المتشوقين للمعرفة.

واحد من الذين يغنون المكتبة العربية هو صديقي صالح علماني، الذي عشت وإياه جيراناً لسنوات في (زقاق) ضيق أصغر من(زقاق المدق) في رائعة نجيب محفوظ، في دخلة هواؤها قليل، موحلة شتاءً، مغبرة صيفاً، في شقتين طالما تبادلنا الحديث وأكواب الشاي وفناجين القهوة على شرفتيهما المختنقتين بمبان فوضوية أنشئت على أراض زراعية، في موقع هو امتداد لمخيم اليرموك، قرب دمشق، اسمه (الحجر الأسود). الحمد لله فبعد تضحيات تمكن صالح من إنقاذ أسرته من بؤس ذلك المكان، ووفر لنفسه هدوءاً طالما احتاجه لمواصلة ترجمة روائع يختارها بمزاجه وحسن ذوقه.

حتى الآن، نهاية عام 2006، نقل صالح علماني إلى اللغة العربية 65 عملاً روائياً، وقصصياً، ومسرحياً، وشعرياً، عن اللغة الإسبانية، لغة إسبانيا والقارة الأمريكية اللاتينية التي تتكلم وتكتب بالإسبانية (باستثناء البرازيل التي تتكلم البرتغالية، وهي لغة قريبة جداً بينها وبين الإسبانية شراكة وتداخل).

في هذا العام 2006 صدر لصالح علماني كتابان مترجمان عن الإسبانية، هما (الديكاميرون) لبوكاشيو، و..(صنعة الشعر) لخورخي لويس بورخيس، والذي يضم ست محاضرات عن: لغز الشعر، موسيقا الشعر، الاستعارة، موسيقى الكلمات المترجمة، معتقد الشاعر، فن حكاية القصص.

هذه أول مرة ينقل فيها صالح علماني عملاً من اللغة الإسبانية لم يكتب بها، فالديكاميرون رائعة جيوفاني بوكاشيو في مطلع عصر النهضة، مكتوبة بالإيطالية، يعتز الإيطاليون بها كما نعتز نحن بألف ليلة وليلة.

الديكاميرون في الترجمة العربية تقع في سبعمئة صفحة وصفحتين (702) من القطع الكبير.

أخبرني الصديق صالح علماني بأنه وصل ليله بنهاره على مدى عشرة أشهر لتقديم ترجمة لائقة بهذا العمل الكلاسيكي الكبير بما يتمتع به من قيمة أدبية ريادية أوروبياً وعالمياً، والذي يرى كثير من نقاد الأدب انه المعلم البارز التأسيسي للرواية الحديثة.

قدم (علماني) للترجمة بمقدمة ضافية تقع في 38 صفحة للتعريف بفن بوكاشيو، وعلاقاته الأدبية، ومغامراته وإحباطاته النسائية، وصداقته مع شاعر إيطاليا الأكبر (بترارك)، وكتاباته التي مهدت لظهور هذا العمل الفذ، وما لحق به من تشويه واتهام بأنه يدعو للفساد والتحلل، تماماً كما هو الشأن مع (ألف ليلة وليلة).

تدور أحداث (الديكاميرون) في عشرة أيام، في تلك الفترة الرهيبة التي حصد فيها الطاعون الأسود أرواح 25 مليوناً من الأوروبيين، هم حوالي ربع السكان في النصف الأول من القرن الرابع عشر.

يتناوب على رواية ليالي (الديكاميرون) عشرة أشخاص، هم سبع نساء، وثلاثة رجال، نأوا بأنفسهم بعيداً عن الأمكنة التي ينتشر فيها الوباء، طلباً للتسلي والتسرية بعيداً عن الأحزان والكآبة ومشاهد الموت اليومي المخيف، وتدور الحكايات بين عدة محاور، وكل محور تختاره (ملكة) أو (ملك) الليلة.

دانتي الليجيري (الكوميديا الإلهية) و(بترارك) شاعر الطليان الأعظم، و(بوكاشيو) ينتسبون إلى مدينة (فلورنسا) التي كان من تقاليد برجوازيتها رعاية الثقافة والفنون، والعناية بتزيين بيوتهم المترفة بروائع اللوحات الفنية.

يكتب صالح علماني في المقدمة حول ترجمة هذا الأثر الادبي الشامخ: على الرغم من انقضاء سبعة قرون على ظهور هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإيطالية العامية ـ الآخذة بالانشقاق عن اللاتينية آنذاك ـ إلا أنه لم ينقل إلى العربية كاملاً من قبل، بل ظهر منه في النصف الأول من القرن الماضي عدد من القصص ضمن مجموعتين قصصيتين، بترجمة كامل كيلاني. وفي خمسينات القرن الماضي، ربما في عام 56، وضمن سلسلة (كتابي) التي كان يشرف على إصدارها حلمي مراد، صدر الكتاب الثالث عشر من السلسلة بعنوان (الديكاميرون / ألف ليلة وليلة الإيطالية) بترجمة إسماعيل كامل.

يصف (علماني) ترجمة كيلاني بأنها : أقرب إلى التعريب مثلما جرت العادة في مطلع القرن العشرين، حيث يعمد المترجم إلى إعادة صياغة النص بأسلوب إنشائي مزخرف، وبلغة عربية محشوة بالتنميق، تكثر فيها المحسنات اللفظية التي تثقل أحيانا على القصة، ولا يتورع في أحيان أخرى عن إضافة فقرات مطولة، أو الخروج باستنتاجات أخلاقية.

لا يغمط (علماني) حق من سبقه من المترجمين العرب الآباء، ولكنه بجمل قليلة يحدد فهمه للترجمة، ودور المترجم، ومفهومه للأمانة تجاه النص المترجم، وتجاه المتلقي العربي.

لم يشر علماني لمترجمين بعينهم من الذين كانوا يتصرفون في النصوص، ولكنني أذكر القراء مثلاً بترجمات المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي (ماجدولين، وفي سبيل التاج) عن الفرنسية التي لم يكن يتقنها، ولكنه كان يصوغ ما يترجمه غيره بلغة أدبية إنشائية لا تراعي الدقة وتشتط في الجموح العاطفي والبكائيات، وبترجمات خليل بيدس الفلسطيني من أصل روسي، عن الأدب الروسي وكيف كان يبيح لنفسه الحق في تغيير النهايات ليجعلها سعيدة بحيث لا تعكر صفو خاطر القارئ العربي، وهو لم يكن يخفي ما (يقترفه) ملتمساً لنفسه العذر بان مشاعرنا وأخلاقنا نحن العرب تختلف عن غيرنا.

يختتم (علماني) مقدمته الضافية الغنية بإنصاف رواد الترجمه العرب : ومع ذلك يبقى للمترجمين شرف الريادة في نقل نماذج من قصص (الديكاميرون)، وتعريف القارىء العربي في وقت مبكر بهذا العمل الفني البارع الذي لم تبق لغة في العالم، مهما صغر شأنها، إلا وترجم إليها.

في ألف ليلة وليلة تنقذ جدتنا شهرزاد نفسها وبنات جنسها من الموت المحتم بالحكايات، وتؤنسن الملك شهريار وتطهر نفسه، وفي (الديكاميرون)، يواجه النساء والرجال الموت بقص الحكايات الطريفة المسلية والممتعة عقلاً، ولأنها حكايات حية إنسانية عميقة فإنها تعبر العصور، والمسافات، والأزمنة، وتخلد على الدهر. في أيام الخليفة المأمون كان المترجم يكافأ بوزن كتابه ذهباً ـ لأنه يعرف بالآخر، ويثري معرفة قومه ـ وفي زمننا العربي الراهن، لا الكاتب المبدع، ولا المترجم المبدع، يقدران حق قدرهما.

وأخيراً ليس عندنا نحن الكتاب والقراء سوى الكلمات التي شكرنا بها من قبل المترجمين العرب الذين عرفونا بآداب، وثقافات (الآخرين)، وأطلعونا على ما بلغته من تطور، يتقدمهم الدكتور ثروت عكاشة، وجبرا إبراهيم جبرا، والدكتورسهيل إدريس.. وكثيرون يستحقون الثناء، وهذا أقل ما نكافئهم به أحياءً وأمواتاً.

أحسب أن المترجم العربي جدير بان يكرم، وفي بالي عدد من المترجمين الجادين المجتهدين، ولعل جيل صديقي صالح علماني بعد كل ما قدمه يستحق التكريم ونيل الجوائز أسوةً بالروائيين، والشعراء، والنقاد، والقصاصين.

آن أن نتعامل مع المترجم كمبدع يتفانى في العطاء والتضحية بوقته، وجهده، رغم بخسه حقه مادياً وأدبياً.

العام الماضي تنبه المعنيون في مصر فكرموا بعد التجاهل والتقصير المزمن الدكتور ثروت عكاشة الذي ستبقى الأجيال تتغذى من روائع الفن، والشعر، التي نقلها إلى العربية. الصديق صالح علماني جدير بأن يكرم على كل ما قدم من ترجمات مكنت كثيرين من معرفة اتجاهات الإبداع الروائي، والشعري، والقصصي، والمسرحي، في أمريكا اللاتينية، وإسبانيا، فهو ترجم باللغة العربية، للقراء العرب في شتى أقطارهم، رغم الحدود والرقابات التي تباعد بينهم.

صالح علماني يشكر على ترجمة (الديكاميرون)، وأحسب أن الشعراء العرب الذين لا يجيدون الإسبانية سيشكرونه على ترجمة (صنعة الشعر) لبورخيس، والذي سنشاركهم قراءته غير متطفلين، فبين الشعر والرواية وشائج، ولعل صالح علماني لما بين هذين الفنين من صلة، عمد إلى ترجمة هذين العملين الأدبيين معاً في عام واحد.

* صدر (الديكاميرون) لبوكاشيو، و(صنعة الشعر) لبورخيس عن دار (المدى) في دمشق هذا العام 2006.

باريس تحتفي بالكتاب اللبنانيين في اطار لقاءات «كتابة المنفى»

باريس ـ من هدى ابراهيم:

تستهل مساء الجمعة في مركز جورج بومبيدو في باريس اللقاءات الدولية السادسة لـ"كتابة المنفي» والتي تحتفي هذا العام بالكتاب اللبنانيين في اطار ندوات تحمل عنوان «لبنان بين الحلم والكابوس» بمشاركة نحو عشرين كاتبا من لبنان والمهجر. وتقام هذه اللقاءات بين 1 و 3 كانون الاول/ديسمبر وتاتي بعد خمس دورات احتفت بافريقيا الجنوبية اولا ثم تشيلي وهايتي والارجنتين. وقالت فلورانس فيرديل اوزوسكي منسقة اللقاءات ان اختيار لبنان جاء قبل الحرب الاخيرة التي عصفت خلال الصيف بهذا البلد «الذي مات مرات عدة والناهض ابدا من رماده».

واضافت انه بالنظر «الى الحروب والازمات الكثيرة ونظرا للتعقيدات القصوى والعنف الذي شهده لبنان في تاريخه الحديث فان كثيرا من الكتاب وجدوا انفسهم بصدد الرحيل عنه».

اما الكتاب المدعوون فهم كميل ابو صوان وايفيلين عقاد وهدى بركات وريتا باسيل الرامي وعباس بيضون وجهاد درويش وحسن داود ودومينيك اده ورشيد الضعيف والياس خوري وفينوس خوري غاتا وتاميراس فاخوري وصلاح ستيتية والكسندر نجار وسليم نسيب وياسمين خلاط وغيرهم.

وردا على سؤال لوكالة فرانس برس حول ما اذا كان كتاب اتون من بيروت امتنعوا عن حضور هذه اللقاءات بسبب الاوضاع التي يعيشها لبنان قال المنظمون ان احدا من المدعوين لم يعتذر.

ويفتتح اللقاء بـ"ساعة مع الشاعر صلاح ستيتية» يقدم بعدها الكاتب جيرار خوري الذي صدر له حديثا كتاب عن لبنان في عهد الانتداب توطئة تاريخية حول لبنان في القرن العشرين. ويلي ذلك طاولة مستديرة بعنوان «لبنان ارض الازمات: الكتابة ومكانتها في مواجهة التاريخ» تشارك فيها نجوى بركات وسليم نسيب والياس خوري ووجدي معوض ودومينيك اده. وفي لقاءات السبت يحيي الكسندر نجار وكميل ابو صوان ذكرى جبران خليل جبران صاحب عبارة «لكم لبنانكم ولي لبناني».

وفي الرابعة بعد الظهر تعقد طاولة مستديرة بعنوان «التعددية اللبنانية في الادب» بمشاركة الكتاب عباس بيضون وحسن داود وشريف مجدلاني وبهجت رزق ويديرها فاروق مردم بك.

وفي السادسة مساء السبت «ساعة مع فينوس خوري». وتتوالى النشاطات مساء السبت وتقعد ندوة بعنوان «خيار الرحيل أو البقاء والكتابة» بمشاركة هدى بركات وشريف مجدلاني وايفيلين عقاد ورشيد الضعيف وجيرار خوري. وتستهل فعاليات الاحد في الثالثة بعد الظهر بندوة بعنوان «حكايات الحياة في زمن الحرب» يقدمها الحكواتي المقيم في فرنسا جهاد درويش. ثم ينظم لقاء بين ياسمين خلاط الممثلة والكاتبة المقيمة في باريس والشاعرة الشابة تماريس فاخوري.

وتترافق هذه الفعاليات الادبية مع عروض سينمائية لعدد من الافلام القصيرة ضمن تظاهرة «سينما صمود» التي تقدم اعمالا عن فلسطين ولبنان، ويتم في هذا الاطار عرض فيلم وثائقي لرندى شهال انجز عام 1995. (ا ف ب)

«الطوفان» للقاص العراقي محمد عبد حسن:

عندما يتمنى الناس الموت..

فيصل عبد الحسن*

■ وصلتني من الصديق القاص البصري محمد عبد حسن مجموعة قصصية عنوانها «الطوفان» عن منشورات دار أزمنة، والقاص مهندس يعمل في ليبيا وبالتحديد في منطقة أجدابيا، البصرة مسقط رأس القاص كانت وما زالت موئل الكثير من المواهب الأدبية التي أثرت الأدب العراقي والعربي بنماذج قصصية راقية أضافت لهذا الفن الكثير، نتذكر منهم محمود عبد الوهاب ومهدي عيسى الصقر ومحمد خضير وكاظم الأحمدي ويعرب السعيدي وسلمان كاصد ورياض الأسدي وكاظم الحجاج وعبد الحسين الغراوي ووراد بدر السالم وجمال حسين علي ولؤي حمزة عباس وضياء الجبيلي وغيرهم كثير ،والمدينة كما هي فيما يبدو تلد الأجيال تلو الأجيال من الكتاب وكل منهم يكمل مسيرة من سبقه بالرغم مما حدث لهذه المدينة الباسلة من صنوف العذاب في عهودها المختلفة، فهي ارض احتضن ثراها الأحرار، وعاش بين جنباتها كل من حفظ أسئلة الكون الفلسفية، لماذا وكيف ومتى وأين؟

فكانت المدينة دائما في صفوف المعارضة، وهي لذلك مكروهة من الحكومات المتعاقبة التي حكمت بغداد لا يفكر مسؤول بتطوير حياة أهلها أو تقديم الخدمات لهم ويكتفي بتقديم الكفاف لأهلها بل وحتى هذا الكفاف البائس المذل تردى في العقدين الأخيرين فصار الكفاف السابق نعمة حنت له المدينة وأهلها وعطشت المدينة وهي التي فيها شط العرب وملتقى دجلة والفرات وجاعت وهي الميناء الوحيد للعراق وثلثا نفط العراق المباع ينبع من تحت أرضها وتردت حياة الناس فصار أهلها في بعض الأوقات يتمنون لو أنهم لم يولدوا ولم يكونوا شيئا مذكورا، وفي خضم الكوارث التي واجهتها المدينة غادر معظم أبنائها ترابها يجولون في أصقاع المعمورة باحثين عن ملجأ يعصمهم مما أصابهم وأصاب بلدهم ومدينتهم من بلاء ونوازل، فحمل كل منهم تاريخ مدينته وبلده معه أينما حل. لقد كتب قاصنا محمد عبد حسن في مجموعته «الطوفان» تاريخ مدينة البصرة في سبعة عشر نصا قصصيا، وبالرغم من سيادة التاريخي في نصوصه الا أن التقنية القصصية المستخدمة وعين الكاميرا التي يلتقط بها أمكنته وحرصه على استخدام المنلوج والدايلوج لتعميق رؤاه مكناه من تقديم نص قصصي لا يسقط في المباشرة التاريخية بل يصير التاريخ مؤثثا للمشهد القصصي وعمقا له، وهذا ما نجده في نصوص كموت ابيض، الحرب، الطوفان، مملكة بعيدة، وحتى القصص التي تميزت بكونها تقترب من الذات لتفصح عن معاناة حادة امتزجت برموز تاريخية ومرموزات أسطورية وعقائدية دينية : في نص القصر نقرأ وصفا يحيلنا الى القلاع القروسطية، في ص 11:

ـ هذا هو القصر. تريد ان تراه؟ أعرف ذلك. أعرفه. كثيرون قبلك جاؤوا ليروه. قدتهم الى غرفه، ممراته. حتى القبو سأجعلك تراه، سنبدأ به أولا. وفي موت أزرق يتزايد عدد الجثث في المجموعة القصصية كلما توغلنا الى داخلها : ميتات غرائبية وفجائع يصعب وصفها يصف القاص كيف يتم حمل جثة من الجثث الكثيرة المبثوثة في المتن القصصي: ص 17 عربة تقترب. أيد أربع أخفت جميع العلب في جيوب بدلاتها الزرق المتسخة ـ العلب هنا كما يشير القاص في مفتتح نصه علب سجائر مفتوحة ـ حملت الجثة من الكتفين والقدمين ملقية بها الى جوف العربة المسود. المختنق ببقايا قاذورات جعلت روائحها المقززة وجه الجثة يتحرك مبتسما باتجاه السماء. ويصف القاص في نصه البئر المقبرة بقوله ص 24 : يسحرني الهدوء هناك. كنت احتفظ بالكتاب بكيس ورقي تحت إبطي ، أتجول بين القبور. أوراقه صفر متهرئة. أقرأ الشواهد. تثير الفضول. أتأمل رحلة عمر: هنا يرقد. ..لذلك أخفيه بكيس ورقي سميك. أجثم عند شاهدة أخرى. اداري سره. يا قارئا كتابي. وسري معه. الفاتحة. أقرأها وأنهض. هذا القبر بدون شاهدة: مجرد صفين من طابوق متآكل منخور. مخسوف. ونلاحظ هنا أن الوصف لا ينتهي بالطابوق المنخور بل يضيف الى ذلك أن القبر برمته مخسوف لزيادة اشاعة مفهوم التلاشي الأبدي على موتاه وقبورهم.

ونجد القاص في بعض نصوصه القصيرة يسبر أغوار شخصياته الميتة، وهنا كما لو أن القاص تخصص بالناس الذين يتمنون الموت، فهو في كل قصة يجعلنا ازاء كم من الجثث ولن أبالغ اذا قلت أن كل قصة تبدأ بجثة وتنتهي بجثة أو أنها تدور حول ثيمة الموت من البدء حتى الكلمة الأخيرة، وهنا أستدرك حول هذا الموت المعنوي لهذه الشخصيات فهي بالرغم من أنها تبدو لنا حية من خلال حركتها الا أنها في حقيقة الأمر ميتة لا روح فيها ولا دفء ولا رأي لها بما يحدث لها، فما معنى أن يرسل أحدهم الزوج لأداء واجب الحراسة والزوج على يقي من أن من يبعثه لأداء الواجب سيخونه مع زوجته لنقرأ: ص 35

ـ في الساعة الثانية.

ومضى مبتعدا

مد يده وأسكت منبه الساعة. قبل أن يبتعد أضيئت غرفة نومه. رأى زوجته، كما رآها أمس الأول، تنضو عنها ثوبها، استبدلته بآخر أكثر عريا. سرحت شعرها. طلت شفتيها. فتحت زجاجة عطر، دلقت قليلا منه في كفها، مسحت رقبتها.. ابطيها. وبقيت تنتظر.

تنهد بحسرة وابتلعه الظلام.

هنا الذي تحسر هو الزوج الذاهب لأداء الواجب ليحل محله في فراش الزوجية من بعثه لأداء الواجب فهل هناك موت أكثر من موت هذا الزوج المتحسر؟

ان القاص محمد عبد حسن بالرغم من أن المجموعة القصصية هي أولى مجموعاته المنشورة الا أن القارئ يشعر أنه أمام قاص فنان استطاع أن يتجاوز عثرات الكتاب الأول وقد قال عن ذلك ارنست همنغواي في نصيحته للكتاب الجدد مزقوا كتابكم الأول، وأوصى الكاتب الايطالي المعروف ايتالو كالفينو الكتاب الجدد بقوله اكتبوا ما عشتموه وامسحوا من ذاكرتكم كل ما قرأتموه عن الكتاب الآخرين، اكتبوه بكلمات بسيطة وتواضع، ولن ننسى أيضا ما أشار اليه غوستاف فلوبير حين قاضته الكنيسة عام 1857لأنه يشيع الفاحشة بين الناس بروايته «مدام بوفاري» فقال لهم ان مدام بوفاري أنا، والكاتب الحقيقي لا يكتب الا نسيجا من نفسه يضعه على الورق ليكون كاتبا قريبا من الناس. ان القاص محمد عبد حسن في مجموعته «الطوفان» استطاع أن يقدم مدينة البصرة في فجيعتها واضطراب أحوالها واستطاع أن ينقل لنا أفراحها الصغيرة ومباهجها السرية عبر سرد موفق ولغة قصصية مؤدية اتسمت بتقنيات قصصية حديثة أغنت مضامين نصوصه وجعلت قارئه يتأمل تجربته بالكثير من الدهشة والاعجاب.

* الطوفان وقصص أخرى (الأردن) دار أزمنة / 2005 عدد الصفحات 82 قطع متوسط.

* كاتب عراقي يقيم في المغرب

شاهد نفي

صمت البحر أم صخبه؟

خيري منصور *

■ ثلاثون عاما تفصل بين ترجمتين لواحدة من أقصر الروايات في النصف الأول من القرن العشرين وأكثرها اجتذابا للقارئ والناقد معاً، أنها رواية «صمت البحر» لفيركور الفرنسي الذي حشد طاقته وممانعته للاحتلال عام 1941، في هذه الكبسولة التي أعادت اكتشاف جدوى الصمت وجبروته، وهو اكتشاف لا يوازيه إلا ما كتبه سارتر في الفترة ذاتها بعنوان «جمهورية الصمت»، ففرنسا المحتلة في تلك الأيام كانت تقاوم بالصمت أيضا إضافة إلى مقالات سارتر وافتتاحيات كامو في صحيفة كومبا، وأشعار أراغون وايلوار ومنشورات منتصف الليل.

يقول سارتر ان مجرد المجازفة بنطق اسم فرنسا أو كتابته على جدار كانت تكلف الفرنسي حياته، وكأنه يقول بأن الحريات كما الأوطان لا تكتشف على حقيقتها إلا عندما تكون عرضة للفقدان، ففي الأيام العادية الرتيبة لا قيمة لما نعتقد بأننا نملكه تماما، لكن حين تهب عاصفة الوعيد بالفقدان فإن الاحتياطي الروحي كله يندلع من العمق، وتصبح قامة الإنسان أضعاف ما كانت عليه.

في تلك الأيام تحولت فرنسا المحتلة والحرة في آن إلى مظلة وقاسم مشترك إنساني وقومي أذاب الفروق والخلافات ولو إلى حين، هذا على الأقل ما فعله الكاثوليكي فرانسوا مورياك وخصمه لويس أراغون، فقد تعانقا في مقر المنشورات السرية تحت الأرض وكانا معا يصغيان لوقع أقدام الجنود النازيين بأحذيتهم ذات الأعناق اللامعة والضيقة وهم يزرعون أرصفة باريس.

لكن لماذا الصمت؟ سؤال أجاب عنه سارتر في سلسلة من المقالات، لكن فيركور أجاب عنه بهذه الرواية القصيرة، التي اتسم اسلوبها بعفوية، واحتجبت الصفة الروائية تماما وراء العبارات المشحونة، وأحيانا بأسلوب برقي يذكرنا بأعمال ارنست همنغواي ومن نسجوا على غرارها!

كان النازيون قد قرروا أن يسكن ضابط ألماني في منزل أسرة فرنسية، والأسرة في حقيقة الأمر مجرد فتاة وعمها، وقررا منذ اللحظة الأولى بل منذ الخطوة الأولى للضابط أن يقاطعاه بالصمت، تجاهلا لوجوده، وتوظيفا لهذا الصمت الذي هو في أعماقه صاخب وثرثار، العم يدخن الغليون والفتاة تغزل قرب مدفأة الحائط، وعلى سطح المدفأة رف من الكتب الفرنسية ذات الدلالة الموظفة ايضا لابلاغ المحتل بأن الأرض التي استباحها مغمورة بالتاريخ، ولديها من الثقافة ما يكفي لأن يذود عنها، فالموتى ايضا يشاركون أحفادهم في هذا الصمت المقاوم. لقد أدرك الضابط الألماني، معنى ذلك الصمت وأعلن بتهذيب مصطنع أنه بحاجة إلى فرنسا لكن فرنسا لا تعطي أحدا أي شيء رغما عنها، لأن ثراءها الباذخ لا يمكن غزوه، ولا بد لها من أن تعطي الغريب ثدييها كي يشرب مباشرة.

ان الحوارات من طرف واحد هو طرف الضابط الفضولي والغريب كانت تستغرق أماسي الشتاء الطويلة في ذلك العام الأعجب، لكن المونولوج الطويل الذي كان يسري تحت الصمت الشفيف الأزرق ليابسة تحولت الى بحر، هو الدفاعات التي لاذ بها رجل وفتاة ينتميان الى شعب أحس بانتهاك أرضه وحريته وتاريخه العريق! رغم أن الضابط الألماني كان يغير ثيابه العسكرية كلما طرق باب المنزل لكي يجنب أهل المنزل تذكر العدو الذي يجثم على صدور بلادهم.

مثلما فعل سارتر في جمهورية الصمت، عندما قال ان بائع الكتب على نهر السين كان يتعمد ذكر أسماء الخالدين من فلاسفة فرنسا وشعرائها، قدم فيركور المشهد بشكل آخر، رغم أن الفكرة هي ذاتها، فالضابط الألماني الذي كان يتردد على الغرفة التي يجلس فيها الرجل وابنة أخيه، غالبا ما كان يتجه إلى المدفأة وتعبث أصابعه بالكتب، ويتمتم بأسماء بودلير بومارشيه، بلزاك، فلوبير وفيكتور هوغو، فهؤلاء هم الذخيرة التي تملأ الذاكرة والوجدان وتقاوم على طريقتها، وقد اعترف الضابط في موقف آخر بأنه شعر باحتقار من استقبلوا الألمان وخاف على فرنسا وتساءل هل انتهى الأمر بها إلى هذا الحد؟ لكنه سرعان ما يعلن عن غبطته بالغضب الصامت الذي لقيه في هذا المنزل.

ان فيركور يوحي لقارئه بأن فرنسا لم تكن كلها فيشي، ولا مارشالاتها كلهم المارشال بيتان، وهذا يذكرنا ايضا باحدى مقالات سارتر في جمهورية الصمت عندما تحدث عن سايكولوجيا العميل، واعتبر العملاء في أي بلد يتعرض للاحتلال مجرد شواذ لا تزيد نسبتهم عن النسبة الكلاسيكية للمنحرفين وذوي النزعة التدميرية للذات.

وثمة خيط حريري بالغ النعومة، ويشبه جرحا في الهواء امتد في الرواية القصيرة بين عيني الفتاة الفرنسية الصامتة والضابط الألماني الثرثار، هذا الخيط ضروري في نسيج الوجود، وعلائق الكائنات رغم ما يبهظها من شروط فظة وبالغة القسوة.

ان الصمت الذي نصغي إلى صخبه الداخلي والذي يمور في أعماق المحيط، هو لغة أخرى يقاوم بها الإنسان استجابة منه لتحديات تستهدف كيانه وصمت البحر هذا يخفي تحت سطحه الأزرق الهادئ حيتانا وأسماك قرش وصراعات دامية بين كائنات تنقسم إلى صياد وفريسة وما من حدود على الإطلاق لشهوة السطو، وقد يرى القارئ العربي في هذا الصمت تأويلا لمقولة النفري الشهيرة عن اتساع الرؤيا وضيق العبارة، فالرؤيا لدى الفرنسي الواثق من عضوية انتمائه، والمنصهر تماما في هويته الجريحة أثناء الاحتلال تتسع إلى أقصى المدى، بحيث تنتهي العبارة إلى صمت ملغوم بغضب لا آخر له وغير قابل للتدجين، حتى لو سعى المحتل إلى تمجيد الضحية بأن سرد أمامها أسماء رجال ونساء عظام من تاريخها!

الرواية يشع من سطورها وعي تاريخي يمكن رصده عبر عدة مواقع، على اختلاف السياقات، فالضابط الألماني يقول للفرنسي وابنة أخيه أن المانيا هي التي ستحرر عندما تخرج من فرنسا وهذا الوعي بالحرية على نحو يبدو معكوسا ومضادا للسائد الكولونيالي في التاريخ الحديث يمكن توظيفه وإطلاق ممكناته في العديد ن التجليات، فمن يضطهد سواه بسبب فائض قوته أو فائض ضعف الضحية ليس حرا على الإطلاق.

لأنه لو استشعر مذاق الحرية والكرامة لما سعى إلى حرمان الآخرين منهما، وهذه مسألة لا تستدعي موروثا مناقبيا أو القيم الروحية، بل تستدعي التاريخ لكي يتقطر في خلاصات هي أخيرا ما يحرك جدليته ويحرره من محاولات التعقيم التي جربتها امبراطوريات، وتحول هذا الخلل في وعيها إلى عقب آخيل، فتدهورت وانحلت واستبقت خريفها!

ان صدور هذه الرواية الآن، وتوزيعها مجانا مع تسع صحف عربية أمر ذو عدة دلالات، فالوطن العربي يتدرج من المحتل تماما إلى المحتل إلى حد ما إلى ما هو قيد الاحتلال ومدرج على قائمته، وحين صدرت الرواية بالعربية قبل عدة عقود كانت المقاومة الفلسطينية السخونة التي يتحسسها العربي تحت الإبط، فيدرك أنها البشارة لأن معنى ذلك أن الجسد لم يمت بل تماوت كالبعير ولو إلى حين.

والآن أصبحت ضرورة المقاومة، وشحذ المناعة وتصليب الوعي اضعاف ما كانت عليه، وإن كان الصمت قد تجلى في مظاهر أخرى، فمن يقاومون لا وقت لديهم كي يتحولوا إلى مهرجين وحواة في سيرك السياسة التي ادخلت إلى طور النخاسة وقد شاهدنا قبل أيام فيلماً وثائقياً عن البصرة، ولاح بدر السياب في المشهد دون أن يختطف عدسات المصورين أو عيون المشاهدين، كان تمثاله مثقبا بالرصاص وقاعدته الحجرية ترشح دما، لأن الشمس أجمل في بلاده من سواها كما أن الظلام ايضا هو الأجمل، لأنه يحتضن العراق، الذي غنى السياب تربته الحبيبة وحمله كالصليب من منفى إلى منفى!

ومن سوء حظ ثقافتنا أن ستالينا العربي لا يردد تلك العبارة التي رددها ستالين الجيورجي عندما صاح بالروس ان الألمان يقتربون من ضريح ديستويفسكي.

لقد اقترب غزاتنا من السياب، وركلوا قبر القسام بأقدامهم، ولم يسلم منهم كتاب النحو وديوان المتنبي والمتحف والجامع والكنيسة، والصمت العربي الرسمي الآن و على النقيض من صمت البحر الذي نقله فيركور، فهو رماد وليس برقا يثقب الليل ويفتح لصوصه.

هذه مناسبة للتذكير بأن فيركور الفرنسي هو مجري الأصل والجذو، وكان شيوعيا لكنه استقال من الحزب عام 1956 عندما دخلت الدبابات الروسية الى غرف النوم في بودابست ثم أعاد وسام الشرف الذي حصل عليه من رئيس الجمهورية الفرنسية احتجاجا على موقف بلاده من استقلال الجزائر.

وقد ذكرني فيركور وهو الاسم المستعار لجون برولار، بحكاية سمعتها من الدكتور سامي الجندي في أحد مقاهي بيروت، عن كاتب فرنسي أطلق النار على رأسه عندما رأى أول دبابة المانية تدخل إلى باريس، وقد شاهد الجندي صورة هذا الكاتب على جدار مكتب الجنرال ديغول، عندما قدم له أوراق اعتماده كسفير.

فضيلة فيركور، هي إضافة إلى فضائله الأخرى تخليه عن اسمه الشخصي، وتوقيع روايته باسم البلدة التي خبأته من النازيين. ان الرواية درس في المقاومة في أبهى وأسطع أبعادها الثقافية، وصدورها الآن يجب أن يحظى بقراءة مركبة، فهي ليست لتزجية الوقت أو إضافة كتاب فرنسي إلى المكتبة العربية التي تغص بالمجلدات المهجورة.

انها كبسولة، تتقطر فيها روح المقاومة، وعنفوان الصمت المتعالي، والباحث عمن يترجمه غضبا وممانعة واجتراحا لآفاق محرمة!!

* شاعر وكاتب من الاردن